

Albawtaka Review: <http://albawtaka.com>

البوتقة فصلية إلكترونية مستقلة تعنى بترجمة آداب اللغة الإنجليزية تصدر من جمهورية مصر العربية.

Thirty-first Issue, October 2011

العدد الحادي والثلاثون، أكتوبر 2011

"The Scheme of Things" by Charles D'Ambrosio. Copyright © 2004 by Charles D'Ambrosio. Originally appeared in *The New Yorker*, October 11, 2004. Part of his story collection, *The Dead Fish Museum*. Copyright © 2006 by Charles D'Ambrosio. Published by kind permission of the author. All rights reserved.

"الصورة الكلية" بقلم تشارلز دامبروجيو

ترجمة هالة صلاح الدين حسين

اختفى لانس خلف الباب الأبيض لحمام الرجال، وعندما ظهر بعد عدة دقائق، حل عليه تبدل أي تبدل. اختفى عش متشابك من الشعر الأسود الخفيف، اختفت آثار لحية، اختفى أيضاً سخام يديه وأهله سوداء أسفل أظافره الكليية المقضومة. جعلت الحلاقة خطوط فكه حادة كاشفة عن وجه رجل أصغر سناً. دس القميص بعناية في بنطاله وزرره حتى حلّقه. بدا نظيفاً دمثاً كمبشّر. انحنى أمام كيرستين بتلويحة مسرحية من يده ثم دلف إلى محطة الوقود. عاد على الفور بملامح تشي بمنتهى الجدية والعامل وراءه، صبي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة.

قال لانس، "أعرفك بزوجتي، كيرستين."

رسمت كيرستين على وجهها ابتسامة.

"تشرفنا،" رد الصبي ثم زحف تحت هيكل السيارة وعابن ماسورة العادم.

"الجانب السفلي كله صدئ صدأ السنين،" أعلمه وهو يقف ماسحاً يديه من التراب الأحمر. "إني

مندهش لأنك لم تسقط منه."

رد لانس، "ليست لي معرفة كبيرة بالسيارات."

"حسناً،" قال الصبي ووجهه يشرق بالخبرة. "ينبغي أن تستبدل كل شيء، وصولاً إلى أنبوب

الوقود. إنها عملية كبيرة. ستستغرق يوماً، وستكلفك."

سألته كيرستين، "يمكنك القيام بها؟"

"بالتأكيد. لا مشكلة."

حدّق لانس بعينين نصف مغمضتين إلى شارة بيضوية فوق جيب قميص الصبي ثم قال،

"راندي، ما هو أقل شيء يمكننا عمله؟"

أجابه الصبي، "اسمي بيل. راندي شخص كان يشتغل هنا."

"حسناً يا بيل، ما هو أقل شيء يمكننا فعله لنسير بها؟"

"نربطها على ما أظن. قد تصمد حتى تصل إلى وجهتك وإن كانت ستصدر ضوضاء بنت

ستين."

رنا الصبي إلى كيرستين. تسلطت عيناه الزرقاوان الصافيتان على صدرها.

"إننا نمثل جمعية خيرية،" ناول لانس الصبي أحد الكتيبات المطبوعة ثم رصد عينيه تجريان بسرعة يميناً ويساراً وهو يستوعب المعلومات. "وغير النفقات الملحة الضرورية ليس لدينا الكثير من الأموال."

"الدنيا ستخرب بالتأكيد،" علّق الصبي وهو يهز رأسه معيداً الكتيب إلى لانس.

واقفه لانس، "يبدو."

أسرع الصبي إلى المحطة ثم عاد بلفة من شريط الأنابيب. وبينما كان يقبع أسفل السيارة، جلس لانس على غطائها الدافئ منصتاً إلى حفيف الرياح في الذرة. ارتفعت من الحقول سحب بنية من التربة فأضفت على الهواء درجة لون بنية ضاربة إلى الرمادي. استقر غبار الحصاد على أوراق بضع أشجار دردار محتضرة، فوق نوافذ مبنى مشيد من قراميد نفاية المعادن، فوق منازل متنتلة مركونة في الفناء الواقع على الجانب الآخر من الشارع. دار أحد أبواب المنازل على محوره منفتحاً. نزل السلالم الخشبية هنديان وراعية بقر. إنها عشية الهالوين.

سأل لانس، "عندك تليفون؟"

أجابه الصبي، "في الداخل."

غض لانس طرفه فأبصر نعليّ جزمة الصبي أسفل السيارة، ورقعة من جورب متسخ مرئية من خلال ثقب يتسع في أحدهما. سار مبتعداً نحو المحطة.

لم يكلفه الصبي سنتاً واحداً. كانا يجلسان الآن عند تقاطع طريقين في محاولة لتحديد اتجاههما.

تصاعد صوت المحرك عنيفاً والسيارة واقفة. كانت تتفجر كالقنبلة.

قال لانس، "ها هو لبنانك."

أفرغ جيوبه الأمامية والخلفية ثم جذب ثنية البنطال فوق ساقه ليمد يده أسفل الطوق المرن لجوربيه الرياضيين. تكدست علب لبنان وردية وخضراء وزرقاء وحمراء في حجر كيرستين. سحب من جيب قميصه قطعة حلوى وأخذ يمص طبقة الشوكولاتة.

"علبة واحدة كفاية. كرة لبنان واحدة كفاية."

"أرض الوفرة يا حبيبتني."

ألانت كيرستين لبانة وردية ثم نفخت فقاعة مستديرة ضخمة حتى انفجرت وتدلّت اللبانة من أنفها كما الجلد.

قال لانس، "من غير أموال نحن ببساطة نحاول فتح علبة فول بخيارة. لا يهم مدى جوعنا، مدى رغبتنا في ذلك الفول، من غير الأدوات السليمة ذلك الفول وكأنه فوق القمر." ضحك لانس بينه وبين نفسه قائلاً، "فول القمر."

ترجلت كيرستين من السيارة. كان النهار يستحيل بارداً، يستحيل ليلاً. حنت رأسها عبر النافذة المفتوحة فاستنشقت هواء دافئاً هب مع رائحة مختلطة غير مستحبة من الشوكولاتة والديزل.

سأل لانس، "ماذا يخبرك إحساسك الباطني؟"

"لا أدري يا لانس."

سارت نحو نقطة التقاطع. عبرت الأشباح والساحرات من منزل إلى آخر، تحمّل أكياساً ورقية وأكياس وسائد. لفظت مصابيح الشارع نورها بعصبية والغسق يضمحل. ومع رياح باردة تخرق

التي شيرت شعرت كيرستين بحلمتها تجمدان. كان ثدياها صغيرين حساسين، وقد انكسر مشبك حمالة صدرها الوحيدة. أخرجت القميص من بنطالها وحنّت كتفها إلى الأمام كيلا تظهر الحلمتان، ولكن لم تزل الدائرتان الغامقتان تضغطان على القطن الأبيض. صارت الملابس المريحة التي ابتاعها لها لانس في قرية 'كي بيسكين' بفلوريدا أشبه بالأزياء التتكرية، وبدأت غاية في التهلهل والإضحاك هنا في مدينة تيفن بولاية أيوا.

قطعت فتاة صغيرة الطريق فتبعتها كيرستين. فكرت أن تصادق الفتاة وتأخذها إلى بيتها، مناورة، اللعب على امتنان أبوين قلقين تصورته كيرستين دوماً حين رأت طفلاً بمفرده. حل الحصى محل الرصيف ثم حل التراب محل الحصى، وفي النهاية هبط سبيل ضيق في الأعشاب عبر مصرف شقته حفارة، وبعدها اختفى في حقل ذرة. غابت الفتاة عن الأنظار. انتظرت كيرستين عند طرف الحقل منصتة إلى الرياح حتى وقّع بصرها على الفتاة الصغيرة مرة أخرى عند نهاية أحد الصفوف، جالسة تأكل خلسة حلوى من كيس.

"سوف تفسدين شهيتك للعشاء."

قبضت الفتاة على عنق الكيس وهزت رأسها. شعرت كيرستين بأن دخول الحقل يشبه خوض المياه من الشاطئ لتجد نفسها -- بخطوة واحدة قاتلة -- في البحر. جلست على التراب في مواجهة الفتاة. ارتفعت الذرة فوق رأسيهما وطار في موجات تتحني مع الريح.

"ألا تحسِن بالبرد؟" سألتها كيرستين. "أحس بالبرد."

"هل أنت غريبة؟"

"وما هي الغريبة؟"

"شخص يقتلك."

"لا. لستُ بغريبة إذن."

التقطت كيرستن خيطاً حريراً يتهدل من شعر الفتاة الصغيرة.

"إني صديقتك. لم تختبئين؟"

"لا أختبئ. إني ذاهبة إلى البيت."

"عبّر هذا الحقل؟"

أنبأتها الفتاة الصغيرة، "أعرف طريقي."

كانت الفتاة ترتدي فستاناً من القطن الخشن وحذاء خفيضاً وردياً طاله الاتساخ، ولكن كيرستن لم تكن متأكدة إن كان زياً تتكرياً أم لا. شوه إطار من أحمر الشفاه فم الفتاة تشويهاً بشعاً، وأضفت أقمار زرقاء من ظلال الجفون على وجهها غموضاً لا تلاحظه العيون.

سألتها كيرستن، "من تتكرين في صورته؟"

ضغطت الفتاة على قطعة كراميل لتُخرجها من غلاف من السيلوفان ثم أجابتها، "واحدة

كبيرة."

"الدنيا تظلم، ألسن خائفة؟"

هزت الفتاة الصغيرة كتفيها ومضغت الكراميل ببطء. سألت العصارة على ذقنها.

"هيا أرجعك إلى البيت."

"لا."

"لا يجب أن تمكثي هنا في العراء بمفردك."

نكّصت الفتاة عندما قبضت كيرستين على يدها. "دعيني"، صرخت وجسمها النحيل يرتج. "دعيني." داخل صوتها غضب عنيف ألحق الصدمة بكيرستين. شعرت بالأصابع الصغيرة تنسل من يدها انسلاال الريش. وعندما ركضت الفتاة عبر صفوف الذرة، بدت وكأن ريحاً حملتها بعيداً. وفي لحظة واحدة غابت عن كل بقعة وتراءت في كل بقعة. وفي كل اتجاه تمايلت سيقان الذرة والتوت الأوراق الجافة وكان الفتاة الصغيرة مستها لتوها وهي تمر.

عندما عثرت كيرستين أخيراً على طريق للخروج من الحقل، وجدت نفسها في ناحية أخرى من البلدة. سارت بطول الشارع باحثة عن علامات لتختار في النهاية منزلاً من طابقين في منتصف صف من المنازل. رقدت دراجة بثلاث عجل مقلوبة على عشب تتخلله آثار عجل، وحوى حوض مياه بلاستيكي نفاية من أوراق الأشجار. اصطفت بحذاء السلالم قدور من الصلصال بها زهور آذريون ميتة سيقانها ذابلة وقطائلها بنية كما الصوف فوق النجيل. استقرت على درابزين الشرفة عائلة من اليقطين المحفور، تبدي ابتسامات واسعة بأسنان بارزة مضاءة بالشموع، ابتسامات تخفق سوداء وتكاد تتطفئ ضاحكة مع كل هبة ريح. وفي الشرفة التقّت بعض الجرائد إلى جانب صندوق لبن. أثار ضوء أصفر دافئ الطابق السفلي، واضطرب ظل امرأة على نافذة المطبخ المعتمة بالبخار.

سمعت كيرستين صوت راديو شغال. طرقت الباب.

أجابته المرأة. كان شعرها معقوصاً عالياً فوق رأسها برباط أزرق من المطاط. انسدلت عدة خصل شاردة فوق أذنيها وتقوست خصلة رمادية خفيفة حول عينيها. غبّرت لطفة من الدقيق وجنتها.

قالت المرأة، "أجل؟"

"مساء الخير يا سيدتي." ناولت كيرستين السيدة نشرة إعلانية. "إنني أعمل مع ألف ميم ميم، أطفال مدمنون للمخدرات. هل حضرتك مشغولة؟"

أضاءت المرأة نور الشرفة ثم أمسكت النشرة المطبوعة بالقرب من وجهها. أغلقت عيناً وهي تتفحص إحصاءات مكتوبة بحروف سميقة حمراء في صدارة الصفحة. قلبتها متطلعة إلى وجه الرضيع الذابل العابس في الخلفية.

نسبت كيرستين، "بالكاد يبدو بشرياً، أليس كذلك؟"

"صحيح، بالكاد."

"ذلك ما يجري في العالم يا سيدتي، ذلك والأسوأ منه." مدت كيرستين بصرها إلى الطريق، شرقاً حيث انتهت البلدة وانفتح العالم على حقول ذرة وسماء في سبيلها إلى الإظلام. تفكرت في الفتاة الصغيرة.

قالت كيرستين، "الرائحة شهية في الداخل."

"كعك."

"هل تمنعين لو دخلتُ؟"

رمت المرأة نظرة سريعة إلى الطريق، ولمّا لم تقع عيناها على شيء، قالت، "بالتأكيد. دقيقة."  
جلست كيرستين على مقعد بذراعين من الجلد الصناعي وجّهه أحدهم إلى زاوية تقابل التلفزيون. أمامها أريكة مغطاة بفرخ من البلاستيك الشفاف. عادت المرأة بطبق من الكعك. وضعت أمام كيرستين وزلّقت حلقة واقية أسفل فنجان قهوة ملئ باللبن.

"توظفتُ أنا وزميلي في منطقة الغرب الأوسط. بدأتُ هذا العمل حين كنتُ أعيش في ولاية نيوجيرزي، ورأيت بعينيّ كل ما يحدث. لم أفرّ على الوقوف متفرجة مكتوفة اليدين. كان هؤلاء الرضع يصرخون بي طالبين العون."

"لديّ أنا نفسي ثلاثة أطفال."

"الكعك من أجلكم"، قالت كيرستين ثم قضّمت واحدة لتتذوق الشوكولاتة الدافئة.

"مخبوز في البيت. ولكن الأولاد يحبون كعك المتاجر. كل ما يرغبون فيه هو فراخ 'وينج دينجس' أو ما شابهها."

"سيقدرونه في المستقبل يا سيدتي. أعلم أنهم سيقدرونه. سوف يتذكرونه ويحبونك."

مرة أخرى لاحظت كيرستين في الضوء الخافت لخرة الدقيق الأشبه بالشبح على وجنة المرأة. كانت قد مدت يدها لتلمس نفسها في لحظة صامتة منعزلة حين وردّ على بالها شيء لم يسعها تذكره بالكامل، شك أضعف من أن ينال مكاناً في صخب يومها.

"لن يحصل رضيع النشرة على أي كعك منزلي. لقد وُلد ذلك الرضيع مدمناً للمخدرات. هناك نساء قابلتهن شخصياً سوف يفعلن أي شيء لحيازة المخدرات ولا يكثرثن على الإطلاق لما سيحدث لأطفالهن. هناك نساء يرمين أطفالهن من النوافذ ويلقيهن في صناديق القمامة ويلدنهن في المراحيض العامة."

"أنا متأكدة أن الوضع رهيب، ولكني لا أستطيع أن أعطيك أي أموال. لقد اشتغلت طيلة النهار لأخيظ أزياء الهالوين للأطفال. أرادوا بالطبع شراءها من المتاجر، ولكني لا أقدر، لا هذه السنة." "في أية هيئة سيتكرون؟"

"جيني فلاحه، راندل شبح. زي كيني كان الأصعب. إنه شيطان بكاب وقلنسوة وذيل."

دار ببال كيرستين أنها ستتمكن من شراء صدرية من أحد صناديق المحال الرخيصة لو استطاعت أن تقنع هذه المرأة بلين القول وتتال منها خمسة دولارات. نزل الوجع بثدييها. عندما أبصرت الدراجة على العشب أمام المنزل، افترضت أن هذه المرأة ستمد يدها فوراً إلى محفظتها.

"مع تبرع قيمته عشرة دولارات سوف تشتركين في مجلتين من اختيارك، مجاناً لمدة عام." أرت كيرستين المرأة قائمة المجلات. "كوزمو، فوج، ريديوك، كلها." "آسفة."

غمر ضوء أبيض النافذة الأمامية.

"من الأفضل أن تتصرفي." نهضت المرأة. "مجلاتك لا تتفني."

قابلتا في الشرفة رجلاً وجهه قاتم بفعل نفس التراب والغبار البنيين الذين تموجا يوماً  
وحجبا السماء. طعن قش حاد متيبس شعره وتشبث بقميصه ذي المربعات ريش رمادي باهت  
طرحه طائر سنونو. تبادل الرجل والمرأة نظرة صامتة، وأسرعت كيرستين هابطة السلالم.

قالت المرأة وهي تغلق الباب، "ظننتها تريد بعض الحلوى من أجل الهالوين."

"ولا سنت؟" سألتها لانس. "ولا سنت؟" مزقت كيرستين غلاف لبانة أخرى. كانا قد قادا السيارة  
إلى ضواحي البلدة، وهناك اضمحل الضوء وحل الحصى محل الرصيف وتخللت الطريق آثار  
عجل أشبه بقنوات لوح الغسيل، تمعج الطريق كالحية في اتجاه ممر ضيق تسده أشجار الحور  
القطني. لاح كل شارع خارج البلدة مسدوداً بالأراضي الزراعية، وهنا اكتسحت الحقل حصادة  
مضاعة ذهاباً وإياباً، ترتفع وتنخفض مثل سفينة في أعالي البحار. هدر محرك الحصادة أثناء  
مرورها بحذائهما، تسحق سبيلاً عبر الذرة الجافة.

ردت كيرستين، "أتى رجل إلى البيت."

"وما فيها؟"

"فيها أن السيدة ركبتها العصبية وأمرتني بالانصراف."

"كان يجب أن تشتغلي الرجل." أجرى أصابعه على حدود ثديها وكأنه يرسم صدرًا

كاريكاتورياً. "لقد تكلمنا بهذا الموضوع. سوف يمنح الرجل أموالاً فقط كي يلعب دور الرجل."

"إنني نحيفة زيادة عن اللزوم."

"إنك تمتلئين، لقد لاحظتُ جسدك يتخذ شكلاً."

طَبَعَ لانس ابتسامته، ابتسامه عريضة بيضاء بثغرة في منتصفها. كانت سنن من أسنانه قد سقطتا بسبب ضعفه أمام الحلوى. ظل يحرك لسانه في المسافة الخالية، يزلقه داخلاً وخارجاً على اللثة الظاهرة.

قالت كيرستين، "ليتني آخذ جرعة حالاً." حضنت نفسها كي توقف قشعريرة تشع من عمودها الفقري. لاحقها شبح الإدمان.

اقترب مرة ثانية هدير الحَصَّاة النهم. رصدت كيرستين حبوب الذرة الذهبية تنتثر داخل صندوق الحمل. جلس رجل عالياً في المقدمة داخل حجيرة زجاجية، يدخن غليوناً وقبعته الصفراء مائلة إلى الوراء على رأسه.

"دماغي -- دماغ راعي البقر -- شبه ميت. ما رأيك؟"

كانت كيرستين قد ماتت ذات مرة، وقد أخطأت -- قبل أن تدرك مدى إيمان لانس بالخرافات -- حين أخبرته بميتها. كان قلبها قد توقف وانجرفت نحو نور أبيض تعالي بعيداً كملاء تعصف بها الرياح. لاحت فوق مكان ميزت فيه غرفة جلوسها الفوضوية. كانت هادئة تسودها السكينة، توجه ابتسامته إلى وجوه أناس لم تقع عليها عيناها من قبل، أناس فطنت على الفور أنهم أقرباء، عمات، أعمام، أولاد أعمام، أم لم تعرفها قط. كانت كيرستين قد نشأت في بيت لرعاية الأطفال إلا أن هذه الأم الحقيقية مدت الآن يديها نحوها من مصدر الضوء، يدين صاحبتين بلون الورد ترتجان كجناحيّ عصفور. ثمة إحساس بالطمأنينة أنبأ كيرستين بأن هذه هي الآخرة، آخرة تطبق قوانين جديدة تماماً. استيقظت في إحدى مستشفيات قرية 'كي بيسكن' وأمها البديلة

جالسة على كرسي معدني بجوار السرير وشرطيان بزيهما الرسمي واقفان عند الباب على استعداد لتلاوة حقوق كيرستين عليها.

"لا تداوم على سؤالي."

"فقط أغلقي يا حبيبتي عينيك. أغلقيهما وقولي لي أول شيء تريينه."

أبصرت بعينين مغلقتين الفتاة الصغيرة، وحدها، تجري، تائهة في الذرة.

"فلنصرف من هنا."

"ذلك ما رأيته؟"

"شغل السيارة، ماش؟ لا أستطيع تفسير كل شيء أراه."

كانت قد التقت به في فلوريدا، أثناء سنتها الثانية بالسجن. كانت مشكلاتها الأساسية هي الهيروين، ومشكلته الميثامفيتامين. أقاما في مجمع من مبان وردية منخفضة مشيدة بقراميد من نفاية المعادن. وقع المجمع على قرب مثير للأعصاب من طريق به صف طويل من المحال وراء حزام أخضر وسياج من الأسلاك الشائكة. وفي الليل أضاءت مصابيح النيون سعف نخيل متمائلاً وشجيرات موز لتتلون أهداب الدغل المتشابك بدرجات فاتحة عجيبية من الوردية والأزرق. كانا قد تسلقا السياج معاً، ركضا عبر الحزام الأخضر واستترا بالدغل المدهش الرائع. سرعان ما انصرمت سنة في وظائف غبية ضبابية. لانس أمضى فترات يقود سيارة أجرة ويوصل الزهور؛ كيرستين قطعت تذاكر السينما نصفين -- وتيار من الحالمين السعداء يرسلون الطقطقات أثناء عبور الباب الدوار -- ثم كنست نفاية الأرضية خلال ساعات صامتة صمت

القبور والعالم المحترم نائم. اشتغل لانس في وظيفة ثانية، يُحمر كعكاً محلى داخل أوعية سوداء من الزيت وهو يرتدي بذلة بيضاء.

ولكن هذا -- وفقاً لكلمات لانس -- هذا/ سوف يتيح لهما أن يديرا ظهريهما لتلك السنة، لكل شيء فعلاه من أجل البقاء على قيد الحياة. زودهما أحد زبائن محل الكعك بالعدة -- بطاقة هوية، اشتراكات المجالات، الكتيبات. وبالرغم من أن الصفقة تمت كخطط هرمي للاحتيال، لم تكن برمتها خديعة؛ إذ يوجد هامش بسيط من الالتزام بالقانون، فالواقع أن عشرة في المائة من الأموال المجموعة آلت إلى الرضع. عشرة أخرى في المائة سرقتها الجامعون في ميدان العمل، والباقي تم إرساله إلى صندوق بريد في قرية 'كي بيسكن'. ومن هذا المبلغ أخذ الموظفون نسبة، وأخذ موظفو الموظفين نسبة أكبر. هكذا كان من المفترض أن تجري العملية، ولكن عندما رحل لانس وكيرستين عن فلوريدا، ضعُف إحساسهما الواهن بالالتزام ثم تبدد في النهاية، ولم يعد لانس يرسل أية أموال إلى صندوق البريد. كانا الآن منشقين؛ احتفظا بكل شيء.

خرَج لانس من السيارة. حاول أن يخلع ماسورة العادم المجرورة إلا أنها لم تتزحزح. مسح يديه. توهجت على الطريق أضواء صفراء أشبه بالمداخل المشعة تتبعث من منزل مزرعة. تعالَى نباح كلب وتصاعد أنين الريح أجشاً عبر الذرة.

قال لانس، "أسوأ ما يمكنهم عمله هو الرفض."

"لن يرفضوا."

قبض لانس على دفتره ورزمة من الكتيبات وبطاقة هويته. غادرا السيارة وسارا في الطريق أسفل نور أبيض كاللبن بيته قمر محدب أضاء أطراف خفيفة كالريش من سحابة عالية منعزلة. تلون المنزل بدهان أبيض، وقد بدا منيراً مثله مثل برج العلف الفضي والسياج الأبيض الشبح. عندما فتحت البوابة، نبج كلب هائجاً ثم هجم عليها فامتدت سلسلته بسرعة حتى آخرها؛ ارتدت رقبتة في حدة فأحجم عن النباج. وعندما استعاد الكلب توازنه، تعقبهما في نصف دائرة وكأنما يتتبع سبيلاً رسمته بوصلة.

قبل أن يتسنى لهما طرق الباب، أجابه عجوز في يدها سلطانية حلوى. كان شعرها أبيض خفيفاً، مجرد ذكرى للشعر أو إحياء به، لا الشعر نفسه. كانت عيناها زرقاوين، وخطوط وجهها المجعد تضرر صورة الأرض من حولها: منهكة تعمها الأخاديد. انساق فستان المنزل حول جسمها انسياقاً لا تلاحظه الأعين شأنه شأن الضباب.

حياها لانس، "مساء الخير يا سيدتي."

عندما أتم إلقاء مقدمته عن آثار المخدرات المدمرة، تحول إلى كيرستين كي تلعب دورها، ولكنها لم تنبس بحرف تاركة الصمت يستحيل إلى عبء. الليلة بأسرها -- صراير متبقية تطلق صريرها في البرد؛ فراش بني يرتطم بمصباح أصفر؛ القمر يطرح ظلاله؛ سكون آت، بطنين خافت، من الأرض نفسها -- ضغطت بإحكام مثقلة على المرأة.

وفي النهاية أفضت كيرستين إليها، "لو بمقدورك استضافتنا هذه الليلة، سوف نكون شاكرين."

قال لانس، "لا يا حبيبتى، لا يمكننا أن نفرض أنفسنا."

"أشعر بالتعب والبرد."

مرة أخرى تفاقم الصمت حولهم شأن عالم يمتلئ بالمياه.

"زوجي خلد إلى الفراش،" ردت المرأة أخيراً. "لا أحب أن أوقظ إيفي."

أجابتها كيرستن، "لست في حاجة إلى إيقاظه. لو أمكن فقط أن ننام الليلة في غرفة ابنتك،

سوف نغادر في الصباح."

"ابنتي؟"

"إن رسمها جميل. رائع أن تعلقه في غرفة الجلوس. لا بد أنك أحببتها كل الحب."

ارتفعت يد مهدئة إلى شفتيّ المرأة. تراجعت عن الباب -- ليس ترحيباً بقدر ما كان

استسلاماً، تخلياً عن المساحة. دخل لانس وكيرستن. سنوات من ضياء الشمس أحالت لون ورق

الحائط ببطء في غرفة الجلوس وجعلت الزهور البلاستيكية الحمراء على عتبة النافذة باهتة.

انشق سبيل مألوف في السجادة من فرط المشي عليها، وانتظر خُفان من الجلد الناعم في مكانيهما

بجوار الأريكة. كان هواء المنزل دافئاً ساكناً انكتم قليلاً مثله مثل نفس مكبوح.

استيقظت كيرستن في الصباح وإحساس بالغثيان يرين عليها، جلست على حشية الطفلة

الضيقة. أزاحت الستارة. كان الزوجان العجوزان في الفناء الخلفي، الزوجة تُلق على الحبل

جملاً من الغسيل، جوارب، صدرية، لباساً، ملاءات انفردت كما الأعلام في الرياح، والزوج

يعزق أعشاباً ضارة بحديقة يتفرق فيها قصب ذرة هزيل ونباتات طماطم سيقانها سوداء وبضع

ثمرات من يقطين منكفى متبق استقر حزين الوجه على الأرض بعد أن أنقذته من التعفن قاعدة من القش. تأرجحت عصا من إحدى عرى بنطاله ذي الحملتين.

سألها لانس، "رأيت أحلاماً؟" مد يده إلى كيرستين ضاغطاً على فخذها.

"ومن في حاجة إلى الأحلام؟" ردت كيرستين وهي تترك الستارة لتتهدل كما كانت.

"مرارة، مرارة. إياك والمرارة."

تناول لانس بنطاله من الأرضية وهز الجيوب. فردّ الأموال المتغضنة ورتب العملات على معدته في أكوام منفصلة.

نبس، "فلنر أين نحن."

أخذ لانس مفكرته من الأرضية وقلب بإبهامه صفحات قذرة ملطّخة ببقع بنية من فرط قدمها. كان قد دوّن سجلاً في منتهى الدقة لمواردهما المالية.

قالت كيرستين، "لست في حاجة إلى قلم وورقة."

"النظام مهم. لمّا نغتنى من حيث لا ندري، لا يجب أن نكون أغبياء لا نفقه شيئاً. هل

تستطيعين أن ترى العجوزين في الخارج؟"

"إنهما في الخارج."

"لا بد أن العيش في مثل هذا المكان مريح." حط المفكرة ليطل من النافذة بعينين شاخصتين.  
"الواحد يخرج ويُحضر لنفسه بعض الذرة حين يجوع." ضغط بيد مسطحة على الزجاج. كانت  
الذرة في شرق الحقل محصودة، انبسطت الأرض مجردة. "المنظر هناك شكله غريب."  
كانت كيرستين قد لاحظت هي الأخرى. "يبدو أننا تأخرنا زيادة عن اللزوم."

"تلك هي مشكلة السبعينيات كلها."

"إننا في عام 1989 يا لانس."

"حسناً، أن الألوان إذن لتغيير الوضع." أغلق الستارة. "سأموت ضجراً من غسل حجري في  
الأحواض."

"سوف أخرج وأتحدث إليهما."

"أين ذهبت ليلة أمس؟ بعد محطة الوقود."

"ولا مكان." عزفت عن البوح.

"انظري إلى روحك في تلك المرأة هناك."

جلست كيرستين على كرسي طفل لتنتطح إلى نفسها في مرآة تسريحة قامت أيضاً مقام مكتب  
ذات يوم. إلى جانب زجاجات العطور وفرشاة شعر وصندوق من الحلي الضخمة الرخيصة  
استقرت أكواب من أقلام الشمع وأقلام الحبر وأقلام الرصاص ونوتة كتابة صفراء. أمالت  
كيرستين رأسها إلى جانب وأخذت تصفف شعرها مزيلة عنه أوراق الشجر والتراب.

"لانس."

"نعم؟"

"لا تأخذ أي شيء من هؤلاء الناس."

"لا يمكنك إخفاء أي شيء عني،" قال بابتسامة واثقة لا ينقصها التسامح.

وضعت كيرستين الفرشاة ثم خرّجت إلى الفناء حيث كانت العجوز تمط جسمها على أطراف

أصابعها، تجاهد في عناء لتعليق آخر ملاءة منتفخة.

"يدك معي،" طلبت منها. "الرياح تهب غاية في..."

أمسكت كيرستين طرفاً وعاونتها على تثبيت الملاءة. التصق بالقطن المبلول تراب ذرّته

الرياح.

"ربما لا ينبغي أن أتجشم حتى تعليق الغسيل في ذلك الوقت من السنة." نطقها العجوز،

"الغشيل."

كان فم الحَصّادة المزرد يفتح سبيلاً على طول السياج. ألمّت رجفة بالعجوز وصرفت عنها

بصرها.

"منزلك جميل. كل هذه الأرض ملكك؟"

"لدينا ميلان. بابا الآن عجوز لا يقدر على فلاحتها، لذا نؤجر شركة تجارية بقرية كالونا كل

شيء."

"لا بد أنك تأكلين الكثير من الذرة."

"آه، إنها ليست ذرة حلوة يا حبيبتي. تلك الذرة من أجل الخنازير. إنها علف."

"آه."

"تلك السيارة الأرنبية الزرقاء في نهاية الطريق ملكك؟" سار العجوز باحدياب المصاب دافعاً نفسه دافعاً بالعصا. قدّم نفسه، إيفي بووين، إيفي وزوجته جن. تهدجت أنفاسه وصرّت أسنانه كمن يقضم هواء صلباً. لوّث إطار من الملح حافة قبعته الحمراء.

"هما نحن، للأسف."

مس قبعته ليُرجعها مُخرجاً عينيه من الظل.

أنبأها، "ماما تعتقد أن باستطاعتي جرك بالجرار، وهي محقة. ذهبتُ وتفقدتُها هذا الصباح."

نقلت كيرستين إليه، "لستُ واثقة من قدرتنا على تحمل تكلفة أية إصلاحات كبيرة."

قالت العجوز، "تعملان في مؤسسة خيرية للأطفال."

"صحيح."

قال الرجل، "سوف نشغلها حتى تصل إلى محل إقامة طائفة المينونايت، تمام يا ماما؟"

أومأت العجوز برأسها. "لقد أخرجتُ فوطاً. تفضلاً يا أولاد وخذا حماماً دافئاً بينما أجر أنا

وبابا سيارتكما إلى الشعب البسيط -- المينونايت -- وبعدها سنرى."

أبلغتها كيرستين، "نريد لو أمكن أن نذهب إلى البلدة."

"بالتأكيد،" ردت العجوز ثم التفتت إلى زوجها. "ماش؟"

"طبعاً، نعم. نعم."

كان شارع 'مين ستريت' عريضاً مقفراً من الناس وواجهات المحال عديمة اللون في النور المنتشر. وفيما ساد من سكون أرسلت إشارة مرور متأرجحة فوق تقاطع الطريق الوحيد تكة أشبه بتكات الساعة. خامر كيرستين دوار وحلت على معدتها تقاصات، جلست على حافة الرصيف. ثمة لافتة انكتبت حروفها يدوياً على لوح من طبقات خشبية مُغرّاة غير مدهونة، مالت اللافتة على مبنى خفيض مغطى بالجص لتعلن عن بيض طازج، لين، بروكلي، كرز، خبز، بطاطا، بطيخ، فراولة، جعة الجذور، أثاث عتيق.

"كله إلا الذرة،" علّق لانس وهو يرمي اللافتة بحجر. "هل ستخبريني إذن؟"

هزت رأسها. "ذهبت للتمشية ليس إلا يا لانس. لا مكان بعينه،" قالت وهي تصنع كليشياً من يدها الضاغطة على التراب. توخت الحذر من لانس، على علم أنها لو سمحت له، سوف يتنصت لكل مزاج من أمزجتها. اعتقد أن هناك حياة غنية مستحقة تجري على التوازي مع حياتهما، حياة يسعها هي وحدها رؤيتها، وسوف يسبر أحلامها طالباً التوجيهات ويستقز هواجسها طالباً المعاني وكأن كوابيسها وأمزجتها منحتها القدرة على الوصول إلى عالم من اليقين المطلق على حين كانت كيرستين في الواقع تدرك الحقيقة -- أن كل حلم ما هو إلا مستودع من الشك. هو ما تعلمته من حياة أمزجتها في الدوران في فلك المؤسسات. دور الرعاية، عيادات علاج المدمنين، السجن -- بل إن المرأة التي دعته بأمي كانت مؤسّسة، مكيدة لا تبرا من التردد وعدم الثقة. جَلست عائلتها معاً -- عائلة مرتجلة من الوجوه المتبدلة -- في غرف مشتركة مؤنثة بما تبرع

به آخرون، أرائك وظلّات مصابيح متوهجة ومنافض سجائر من زجاج أخضر منقوش، في ردها كانت لها بيتاً أقرب على الدوام من بيتها، والمقيمون فيها أسرة أقرب لها من أي أشخاص عرفتهم.

وداخل تلك الردها، خلال أصباح لم تبدأ قط، طيلة ليال تأبى الانتهاء، طورت كيرستين إحساسها بالعالم الآخر. كانت قد جرّدت طعامها من الأغذية الأساسية الممثلة لحياة المؤسسات - المواد النشوية، الأوعية اللانهائية من القهوة، مكعبات السكر، البودرة البديلة عن القشدة، السجائر. كانت قد قصّرت شعرها جداً وامتعت عن ارتداء الحلى. وذات ظهيرة، بينما كان البواب يمسح المدخل، زلّقت الساعة عن معصمها لتلقيها في دلو المياه الوسخة. كانت قد نظفت غرفتها وأبقّتها بسيطة بلا زخارف. اعتبروها نزيلة نموذجية، مُرتبة هادئة تكاد لا تبصرها العيون. اكتشفت بالتجربة أن الوقت الوحيد الهادئ كل الهدوء في الجناح هو ساعة مظلمة تسبق الفجر، وعليه راحت تصحو في الرابعة صباحاً، أولاً بمنبه، وبعدها من تلقاء نفسها، تنسل بطيئة من النوم إلى سكون في مثل رحابة أي شيء داخل السجن واقترابه من الحرية. كانت تجذب بعدها شمعة من درج التسريحة وتذيبها بجانب أحد أعمدة السرير، تقعد على كرسيها محمّلة إلى مرآة مثبتة في الحائط. انتظرت أسابيع أن يظهر شيئاً في العمق الصافي وهي ترمق الزجاج ببصرها كمن ترمق امتداداً هائلاً. أخبرتها غريزة أنها تحاول بجهد مبالغ فيه، ولكن ذراعيها فقدتا الحياة ذات صباح وانقلبتا ثقيلتين بطيئتين، تقوست يداها وانقلبت المرآة غائمة، امتنع وجهها وكأنه غاص أسفل سطح الزجاج، وامتدت أصابع أمها الحقيقية نحو أصابعها. أدركت في الصباح التالي أن توجيه الصور يجعلها تتلاشى، فأنفقت ساعة أخرى كئيبة وهي تتفرس في

نفسها. استطاعت أخيراً أن تجلس دون أن يستحوذ عليها الذعر في حين غاصت صورتها وتوارت، وكثيراً ما كانت تسترد الوعي من غشيتها بيدها ممتدة تقابل يد المرأة.

في بداية فترة سجنها أعلنت أخصائية اجتماعية كيرستين أن الشيء الوحيد الأفضل من الهيروين هو مستقبل، وقد كان هدية لانس: قلقٌ أي قلقٍ لاحٍ مُركّزاً في الغد، رغبة جعلت الأيام تبدو متاحة. ولكن نفاذ الصبر طغى عليه، ووعيه بهديتها كان مستنزفاً ينتهك حرمتها، مع توقعه أن ينال ربحاً فاحشاً من كل نصف فكرة وحلم يقظة.

قال لانس، "ماش، حسناً. فلنذهب إلى ساحة المقطورات."

"لقد مللتُ تلك المقطورات النتنة."

"لقد تكلمنا مائة مرة بهذا الموضوع."

"أريد المنازل اللطيفة. هؤلاء الناس لديهم أموال."

"لديهم أموال لأنهم لا يندعون بخراء كخرائنا."

أخذا يصعدان سلالم أكبر منازل الشارع وأجملها. بدا بشرفته الواسعة العميقة وكأن الباني بناه وفي ذهنه نظرة مختلفة، منظرٍ أرحب. دقت كيرستين الباب ثم مسحت قدميها في ممسحة الأرجل وهي تقلب الكتيبات والنماذج. سقطت على أرجوحة بالشرفة فزاعة محشوة بالقش في بنطال بحمالتين، رأسها عبارة عن كيس بائس ينعقد حول رقبتة منديل أحمر. دقت كيرستين الباب مرة ثانية، ومرة ثالثة، ولكن لم يجبها أحد.

قال لانس، "ألم أقل لك؟"

"لم تقل شيئاً." سارت بخطى مصممة عبر الفناء المُعشَّب في اتجاه باب الجيران. جلس لانس على الإفريز والنقطة ورقة شجر. لم يلب أحد طرقها. غيّرت ترتيب أدواتها وهي تؤخر الانصراف.

قال لانس، "آن أوان الذهاب إلى الناس زبالة المقطورات."

ركضت كيرستين إلى المنزل المجاور. تعلق شبح من مظلة الباب، وظهر اسم العائلة -- ستراند -- منقوشاً على لوحة خشبية فوق الباب. سحبت نفساً عميقاً ثم طرقت. منذ فترة ليست بالقصيرة وهي تفعل كل شيء على طريقة لانس. لم تستجد إلا بيوتاً وجدت فيها علامات على تدهور رث -- سيارة قائمة على قوالب حجرية، لوح زجاجي أصلحه شريط لاصق، تهدم ما في حواف منزل مترهل هو الآخر -- شقوق في أمل شخص يمكنها هي ولانس الزحف منها. ولكن ماذا جرى؟ لقد استحالا طفلين صغيرين يعترم الحزن في قلبيهما، لصين كذابين حقيرين، يسرقان أشياء لن يفتقدها أحد -- خمسة دولارات من هنا، عشرة دولارات من هناك -- ويفرضان عليها حصاراً بخطط ضخمة وحسابات معقدة. لدى لانس نظرياته غير أن كيرستين خطر في بالها مؤخراً أنه يأخذ بأسباب حياته وفقاً لمعتقدات موروثه محفوظة. تحلى بموهبة في اكتشاف عكس كل شيء -- الأخيار أشرار، الأغنياء فقراء، العظماء حقراء خبيثاء -- ولا عجب أنهما يعيشان الآن حياة مقلوبة رأساً على عقب.

جذبت فتاة صغيرة الباب، فتحة صغيرة تحملق عبرها إلى كيرستين في خجل.

"هل ماما في البيت؟"

"ماما!"

أقبلت امرأة إلى الباب وهي تمسح يديها بمنشفة صقون. كانت نسخة أكمل من الفتاة الصغيرة، نفس الشعر الأصفر والعينين الزرقاوين. قدّمت كيرستين إليها إحدى النشرات. تشبّثت الفتاة الصغيرة برجل أمها. كانت ترتدي جورباً أصفر وآخر أخضر، بنطال رقص برتقالياً ضيقاً، تنورة أرجوانية، كنزة حمراء بياقة عالية.

سألتها كيرستين، "هل ارتديت ملابسك بنفسك هذا الصباح؟"

أومأت الفتاة الصغيرة برأسها ودفنت وجهها في ثنايا تنورة أمها.

ابتسمت الأم. "يقلل من الشجار، صح يا إبيرل؟ لقد اتفقنا. هي تُلبس نفسها، ثم عليها أن تأكل كل الإفطار." ناولت كيرستين الكتيب. "لقد أعددتُ قهوة منذ دقائق."

مالت كيرستين إلى الأمام على كرسي أخضر حائل اللون بجوار النافذة، راقبت لانس وهو يرمي الأحجار والعصي بلا هدف في الشارع.

جلبت المرأة فنجانين من القهوة وطبقاً من فطائر 'البوب تارت'، مُحَمَّصة ومقطوعة ثلاثة قطع، مسفوعة الأطراف.

"سوف تُدهشين من عدد متعاطي المخدرات في هذه الأنحاء."

"لستُ متأكدة يا سيدتي إن كان سيدهشني. تتناهى إليّ أينما أذهب قصصاً من ناس تأثرت

حيواتهم بتلك الأشياء." رشفت قهوتها. "تلك المأساة."

باحث إليها المرأة، "إني قلقة على هذه الصغيرة."

قضمت كيرستين حافة فطيرة فشعرت بطبقة القرفة الملساء الساخنة على سطح فمها. استقرت على رف المدفأة تشكيلة من اليوم المصنوع من الخزف. كان يحق إلى الحجرة بعيون ثابتة متسعة اتساعاً لا تطرف حتى إنه بدا أعمى.

"بومي. لا أعلم كيف يبدأ المرء بتجميع الأشياء. لا يكن منك إلا أن تجمعها ببراءة. تظنين واحدة سكرة، وإذ بك... -- لوحت بيدها في الهواء -- "لديك بوم غبي في كل شبر من البيت." "يشغلهم."

"ماذا؟"

"لو أن شيئاً يشغل إبيرل وكل الأطفال، لن يتاح لهم وقت للمخدرات." "كلام منطقي."

"يعتقد الناس أن المدمنين ناس كسالى لا يصنعون شيئاً، ولكن الإدمان في الواقع وظيفة بدوام كامل. معظمهم يبذلون معه جهداً أشق مما يبذله هؤلاء الفلاحين الذين رأيتهم في حقول الذرة. إنه يستهلك حياتهم كلها."

كورت المرأة يديها على ركبتيها ثم شبكت أصابعها. إمّا أن دبلتها على عتبة النافذة فوق حوض المطبخ، متروكة هناك بعد أحد الأعمال المنزلية، وإمّا أنها مطلقة. أحست كيرستين بفورة من الكلمات الجديدة ترتفع في حلقها.

"تعلّمين شعور الحامل، لذا لن أضطر إلى إخبارك بما يعنيه أن تحملي حياة داخلك، تخيلي بعدها أن تطعمي طفلك سماً طيلة اليوم. لو حدّث وولّد طفل مثل ذلك الطفل في النشرة، لا يند عنهم إلا البكاء. لا يمكن تهدئتهم."

عمّت الفوضى الحقيقية، واضطرت المرأة أن تتقب بين مناديل متقبضة وميداليات مفاتيح وملابس دمي قبل أن تُخرج دفتر الشيكات جذباً.

صارحتها كيرستين، "لم أعرف أمي قط."

تعلّق قلم المرأة فوق الشيك إلا أنها وضعت كي تنتظر إلى كيرستين. نظرة لم تزايل كيرستين طيلة عمرها، نظرة ألحقت بها الخزي، فقد كانت تشهد شيئاً غاية في الصغر والهشاشة واليأس في أعماق ما خالج الآخرين من عطف. كانت نيتهم حسنة، نية لا تعني لها شيئاً.

والت كلامها، "الحق أنني لا أهرب أبداً من هذا الشعور. الحزن، ممكن أن تسميه. أمي -- أمي الحقيقية أعني -- موجودة في الدنيا، ولكنني لن أعرفها قط. أحياناً ما يساورني شعور بأنها تراقبني في الظلام، ولكنه أقصى ما أشعر به. تعرفين ما ينتابك من إحساس حين تخالين أن شيئاً هناك ثم تلتفتين فلا تجدين شيئاً؟"

كانت المرأة تعرفه، تعرفه، بإيماءات تحثها على المتابعة.

"ولكنني لمّا أفكر في حياتي، أجدني خير حالاً من هؤلاء الرضع. فقط انظري إلى وجه ذلك

الصغير العابس، رأسه الداوي. يبدو كالغريق."

كتبت المرأة بعدها مبلغاً من المال ثم وقّعت.

قال لانس، "لينتي كنتُ خفياً. سأدخل هذه البيوت بكل بساطة دون أن يدروا بي."

"وماذا ستفعل؟"

"في هذه اللحظة سأسخن بعض الخبز المحمص."

"جوعان؟"

"قليلاً."

"ألن يروا الخبز طافياً حولهم؟"

"خبز خفي."

"أنتك تلك الفكرة من دماغك، دماغ راعي البقر؟"

"لا تسخري من دماغ راعي البقر. لقد أخرجنا من ذلك السجن اللعين. لقد عبّر بنا ذلك

السياج."

"إننا شبهان لهؤلاء الناس يا لانس. إنهم بالفعل لا يروننا."

"أريد أن أقتل أحداً. سوف يرغمهم ذلك على رؤيتنا. سوف يرغمهم عندئذ على التصديق."

"إنه مجرد كلام. أظن أن دورتي على وشك النزول."

"رائع. وكأنها ناقصة."

"ملعون أبوك. لم تنزل دورتي منذ سنتين."

قَلَبْتُ أَدَ الكَتِيبَات. التقت عينا كيرستين بوجه الرضيع منفطر القلب فتذكرت أغنية اعتادت أمها البديلة غناءها، ولكن بينما لم يفارق اللحن ذاكرتها، انمحت منها الكلمات، فمجرد التفكير في هذه الأم معناه الاشتراك في كذبة، وكل شيء يخصها مازجه، بطريقة أو أخرى، الفساد. ما عادت كلمات الأغاني كيرستين بسهولة قط -- كانت تضطر إلى عصر عقلها لا لشيء إلا استدعاء إحدى ترانيم عيد الميلاد.

قالت، "رضعٌ صغار مثل ذلك الرضيع، سوف يصرخون طيلة الوقت. تعتري العصبية أيديهم الصغيرة. تستبد بهم نوبات رهيبة، وعندئذ لا يمسون عن عصر أيديهم بإحكام شديد والقبض على الهواء. لا يسعهم الكف عن الارتجاف، ولكنهم ينقلبون في مثل تصلب لوح من الخشب عندما تحاولين حملهم."

"كي أتوخي الصراحة المطلقة، أنا لا أعبأ في الحقيقة بدين أم هؤلاء الرضع."

"عارفة."

"كل ما نحتاج إليه هو نقود للوقود."

"عارفة."

أجاب رجل باب المنزل التالي، وعلى الفور شمَّت كيرستين من الباب السلكي رائحة كريهة مكتومة. كان التلفزيون دائراً في غرفة الجلوس الضيقة. استقرت نبتة من نبات العنكبوت على مكبر صوت، لم تزل في قدرها البلاستيكي، تربتها جافة صلبة وإن نبت برعم باهت ونما هابطاً إلى سجادة من الوبر وكأنما قد يجد طريقة لمد جذوره في النسيج. هناك مقال في الحوض دعتها

عند الحاجة، ثقل قهوة ومعكرونة على الأرضية، عُملات عالقة في شعر متكئ فوق رأس كلب. ضوء واهن لا يتحرك في غرف نوافذها لم تنفتح قط وستائرهما دوماً مغلقة. "لا بد أن بعضهم يدمنونها"، قال الرجل بعد أن شرحت كيرستين سبب قدومها. "فهي لا تذهب عنهم قط."

اعترفت كيرستين، "ربما. أنا نفسي ظننت نفس الشيء."

مضى إلى المطبخ وفتح الثلاجة.

"ترغبين في جعة؟"

"لا، شكراً."

لاح الهواء الأزرق المحيط بالتلفزيون وكأنه جو خاص به، وعندما غاص الرجل مرة أخرى في مقعده، بدا وكأنما ذهب إلى هناك ليتنفس. رشق ثديي كيرستين بنظرة ثم خفض طرفه إلى قدميها، وفي النهاية إلى يديه هو، يدين ضخمتين خرقاوين تنفوسان بإحكام حول الزجاجاة. "أين تقيمين؟"

"على بعد ميل تقريباً من البلدة." سلّمت الرجل كتيباً. "لقد عايشتُ نفس ذلك اليأس الذي تتحدث عنه، حين تشعر بأن لا شيء سيتغير بما يكفي لمحو المشكلة بأكملها."

"أغلبهم مجموعة من الزوج."

"هل نظرتَ إلى ذلك الرضيع؟"

"رضيع من القطران."

"ذلك الطفل أبيض." لا علم لها إن كان ادعاؤها صحيحاً.

ما بدر منه جواب.

أومأت كيرستن برأسها نحو التلفزيون. "مَن الفائز؟"

رد الرجل، "علمي علمك." كان يستخدم شماعة بدلاً من الهوائي. "الفريق الأزرق على ما أظن."

"ولكن أليس كافياً؟ لو بمقدورك إنقاذ رضيع واحد من حياة الجحيم تلك، أليس ذلك جيداً؟"

"لا يهم كثيراً، في الصورة الكلية."

"سوف يعني كل شيء لو كنت مكانهم."

"ولكنني لست مكانهم." خطفت صورة التلفزيون الضبابية جل اهتمامه. "أين؟"

"أين ماذا؟"

"أين تقولين أنك مقيمة؟"

"مع هذين العجوزين، إيفي، إيفي وزوجته چن."

ألقي الكتيب على الأرضية ثم دفع نفسه قائماً من المقعد. انحنى وتفرس صامتاً في محفظة عامرة بالإصلات.

"حسنًا، أرسلني سلامي إليهما الليلة. أخبرني إيفي وچن أن چون يُسلم عليكما." حين استردت كيرستين بصره، كانت عيناه قد انقلبتا محايدة. "انقلي إليهما أسفي وأعطيتهما هذا،" نبس وهو يميل نحو كيرستين. حين ابتعدت شفتاه عن ثغرها، ناولها آخر خمسة دولارات في محفظته.

عندما رجعا إلى منزل المزرعة، ألفيا سيارتهما تقف في الممر والعشاء ينطبخ. كسا البخار نوافذ المطبخ، واستقر الهواء الندي بدفئه ورائحته الذكية كالعطر على بشرة كيرستين. أجرت مياهًا دافئة ورغت يديها بالصابون. كانت كرة الصابون ناعمة بالية شأنها شأن عظمة قديمة، فسيفساء مُجمعة من بقايا، قطع صغيرة ادخرها مقتصد ثم ألانها وكتلها معًا. بدا كل شيء في المنزل متسمًا بنفس هذه الصفة، تلينه لمسة من الأيدي -- أياد محت الطلاء النحاسي من مقابض الأبواب، أياد أبلت المقابض الملونة للملاعق والمغارف إلى أن يتعري الخشب. شطفت كيرستين يديها، وقدمت جن إليها منشفة.

سألته العجوز، "ليس لديك أية ملابس أخرى، أليس كذلك؟"

"لا يا سيدتي."

"هيا نخرج بعض الأشياء من العليّة." رسمت خطأ أفقيًا من قمة رأسها إلى قمة رأس كيرستين. "أظننا في نفس الحجم تقريبًا. لن تفوزي بأية جوائز في الموضة، ما هي إلا بعض الملابس العجيبة القديمة، بعض البناطيل الصوفية، سترة، كنزتان صوفيتان من التريكو. ولكنك لا ترتدين ملابس تناسب ولاية أيوا." نطقها "إيواي."

"إنني ممنونة لك يا سيدتي."

"لا أتخيلك قادرة على تحمل تكلفة الأشياء الإضافية وأنت تؤدين مثل هذه الوظيفة،" قالت وهما تصعدان مجموعة من السلالم تعالت من مدخل الطابق العلوي. "ولكننا في هذه البلدة لا نعتبر المعطف شيئاً إضافياً."

شدّت العجوز سلكاً فأضاءت العُلْيَّة لمبة مجردة. تراءت الغرفة في الوهج المفاجئ وكأنها لا تحوي إلا خليطاً من الظلال. "لقد احتفظتُ بكل شيء."

أنهت كيرستين إليها، "قابلتُ اليوم رجلاً في البلدة. قال إنه يعرفك أنت وإيفي."

شقت العجوز بظفر إبهامها شريطاً لاصقاً على أحد الصناديق ثم ناولت كيرستين كنزة تفيح منها رائحة غبار وكافور خفيفة.

ثبتت كيرستين المرأة وطبعت قبلة على شفيتها. "أخبرني أن أعطيك تلك القبلة."

نبتت جن، "چوني؟ إنه يرفض المجيء هنا."

سرعان ما ارتدت كيرستين كنزة صوفية من التريكو بأزرار جلدية سوداء أشبه بسُرَّة طفل ذاوية. هناك كُرّة منديل جامدة في الجيب. لم تعهد قط عالماً يضم مثل هذا الاقتصاد، عالماً يدخر الأشياء ويخصص غرفة في منزل للتخزين. لقد عاشت هذه المرأة لتمنح أشياءها لمن يخلفها، ولكن لا أحد الآن لأخذها.

جاهرت كيرستين، "كانت حصّادة، في مثل هذا الوقت من العام."

أومات العجوز.

"ابنتك الصغيرة لا تدري أنها ميتة. لا تزال موجودة في الخارج."

"وكيف أعرف أنك متأكدة مما تقولين؟"

"لقد رأيتها. وعندما أتيتُ أنا ولانس إلى الباب الليلة الماضية، لم ندق الباب قط."

أنزلت العجوز معطفاً صوفياً من رف على الحائط.

"كنتِ تسهرين في انتظارها. تنتظرين كل عام."

خطتِ جنّ أمام مرآة طويلة متأرجحة لتمسك المعطف لصقّ جسمها، تجربه لحظات مثل عارضة أزياء.

"لم تكن غاطة إيفي."

قالت العجوز، "ولكنه يشعر بالذنب."

"كان لا بد."

"لا بد من ماذا؟"

"أن يعيش، كان لا بد أن يعيش حياته، مثلك ومثلي."

وفي غرفة الطعام أعدتا أربعة أماكن بالاستعانة بصحون فضية وأطباق جميلة ومناديل تنطبع عليها الزهور. علا المائدة فخذ خنزير يخزه كبش قرنفل ويطوقه أناناس وزيتون أسود وفاصوليا خضراء وسلطة وخبز. أمطر إيفي زوجته بالاهتمام وكأنه لم يتناول معها العشاء أبداً من قبل، إذ مرر إليها الأطباق وعرض عليها المزيد من الطعام الذي رفضته في كل مرة قائلّة، "تفضله أنت." فطنت كيرستين أخيراً، فهمت أن هذه العناية المفرطة كانت طريقة الرجل الماكرة في

مجاملتها وفي نفس الوقت الفوز بالقليل من الطعام الزائد. كان الطعام شهياً؛ تلاً بالكامل: مرق الخنزير، الزبد يسيل من الفاصوليا، الزيت على السلطة. قضت جن أغلب الوجبة على قدميها، تُقدم، تغرف، تسخن، تملأ.

قام حوار إيفي بجولة شاملة تطوف الأرض. روى أن چيسي چيمز كان يختبئ في هذه البلدة ثم راح يتحدث عن الزراعة من غير فلاحه، بتربة لم تتعرض للتسوية أو الحرث.

أردف، "تدخل الذرة في كل شيء تقريباً، في البنزين، شمع الاحتراق، أقلام الشمع، معجون الأسنان، الحفاضات--"

قال لانس، "لا، صحيح؟"

"مؤكد،" واصل العجوز، "والدهان والجة والويسكي. كل حاجة تتخيلها."

أخبرهما بأن واحداً من بين أربعة خنازير في هذا البلد تنتجه أيوا. نطقها هو الآخر، "إيواي." أعلن بكلمات هادئة أن الخنازير ما كانت لتقبل بتاتاً البتة بغير ذلك. أدى موضوع الخنازير إلى قصة كان قد قرأها عن فيدل كاسترو، شوى يوماً خنزيراً في غرفة بأحد فنادق نيويورك. حكى بعدها عن أسفارهما، رحلة إلى أيرلندا وأخرى إلى هاواي التي لفظها، "هوي".

تناولوا بعد العشاء فطيرة باليقطين -- تحفة كما قال إيفي وطبق الفطيرة يتصدر المائدة الخالية.

كانت لذيدة، الحشو دافئ بإحساس زائل بالزبد على لسان كيرستين. سألت، "ماذا بها؟"

"آه، قرفة، زنجبيل، جوز الطيب، فلفل حلو، فانيليا، ولكن اليقطين الحقيقي هو السر." --  
الراضية بما غلب على المائدة من رضا -- ابتسمت إلى زوجها الذي وضع شوكته في شيء من  
الوقار.

كاشفها إيفي. "عندما أتيت، ماما قالت إنك ذكرتِ ابنتنا الصغيرة."

سد العجز نظرة إلى زوجته عبر المائدة متفحصاً عينيها أو فمها الملوي باحثاً عن إشارات  
لا تلاحظها العين، باحثاً عن موافقة. بدا وكأنه وجد ما احتاج إليه في المسافة الفاصلة بينهما، وقد  
تعالى صوته لا لغرض إلا إثبات أن ما وجده موجود وأن شخصاً آخر شهده.

فاهت جن، "فتاتنا الصغيرة."

قالت كيرستين، "ابنتك."

"تساءلتُ إن كنتِ صديقة قديمة. ربما من المدرسة. أغلبهن كبرن ورحلن عن البلدة. كنتُ  
أبصر -- منذ أمد طويل، ولكن... تضاعل صوته وعيناه الزرقاوان الفاتحتان تلتمعان دامعة في  
ضوء ضعيف يصدر متشظياً من النجفة.

قال لانس، "كيرستين مضت إلى الجانب الآخر. لقد رأته."

قال إيفي، "إنني أصدقك. البعض في هذه الأنحاء لا يصدقون الباحثين عن المياه بعضا  
الاستنباء، ولكننا نصدقهم دائماً. لا شيء يدعونا أبداً إلى تكذيبهم. لدينا دوماً الكثير من المياه."  
تتنح. "سوف أَدفع أي شيء لو بإمكانك أن تخبرنا -- أي شيء."

قال لانس، "الرضع."

"سوف أساعد هؤلاء الأطفال. سوف أتبرع لقضيتك. أين ستذهب بعد هنا؟"

أجابه لانس، "سوف نتجه غرباً."

تَبَّتْ إيفي شوكتة في زاوية قائمة مع حرف المائدة. "إذن؟"

كانت كيرستين على وشك التحدث حين أحست بيد تتسل إلى ركبته، أصابع تتحسس طريقها إلى أن ترتاح دافئة في يدها وتقبض عليها بإحكام. صوبت لمحة إلى المرأة العجوز.

باحث إلى إيفي، "لا شيء إلا ذلك الرسم المعلق على حائطك."

كان رسماً رسمه أي طفل مائة مرة -- المنزل، الشجرة المورقة، الشمس في أحد الأركان، العصافير في السماء، الممشى يتسع كما النهر متدفقاً من الباب الأمامي، العائلة واقفة على العشب الأخضر، أخ، أخت، أم فستانها بفتحة صدر مثلثة، الأب أكبر مرتين من الجميع، الأصابع الشبيهة بالعيدان تتشابك -- رسم لا يحتفظ به أحد على الإطلاق.

أردفت كيرستين، "إنه ذلك الرسم فقط لا غير، لبيت باستطاعتي أن أخبرك بالمزيد، ولكن لا يوجد."

تناول إيفي شوكتة وضغط بها على فتات حرف الفطيرة -- لم تنزل في طبقه -- ليجمعها. لاح وكأن سؤالاً آخر يجول في عقله.

أسرَّت إليهما العجوز، "كان هذا آخر رسم."

قال، "كانت قد رسمته لتوها في المدرسة. رسمتني أنا وچن، هي وأخاها."

"ستيفاني،" نبست كيرستين، "وچوني."

سدد العجوز نظرة إلى زوجته.

قالت كيرستين، "كتبت كل الأسماء في الرسم."

همست چن بـ نعم، ولكن إيفي هو الذي صارحهما. "بعد ما جرى لم أتتفس أبداً كما يجب أو

أمشي كما يجب. كذلك لم أزرع قط الأرض عدا حديقتي الصغيرة في الفناء الخلفي."

قالت كيرستين، "كانت تلك أحلى فطيرة أكلتها في حياتي."

حثها إيفي، "أريهما شرائطك يا ماما."

"آه، لا،" ردت چن وهي تلوح بيدها مستكرة الطلب، الإغراء بشيء بذئ.

رد إيفي، "آه، صحيح. الفطيرة هنا، هه؟" نظر إلى أركان المائدة. "الفطيرة هنا."

حلقت كيرستين فوق الحقل، وتناهدت إلى أذنيها قعقة محرك وسيقان نباتات مسحوقة تنقصف،

طقطقة صاخبة انتشرت وترامت إليها من كل مكان في نفس اللحظة، كما النيران. انطلقت

السيقان بلا تحك أثناء الدرس، انكسرت، أرسلت الغبار، أطارت عَصافتها عالياً. ثم ارتطمت

عيناها بالفتاة الصغيرة في الأمام، تعدو بين الصفوف، ضالة في المتاهة، عاجزة عن إيجاد اتجاه

آمن. وفجأة، جلست الفتاة على التربة، سكونها غريزي، طرفها مرتق عبر أوراق الشجر، في

انتظار انقضاء الضوضاء. أبصرتها كيرستين هناك -- فتاة صغيرة طيبة هادئة مطيعة --

ولكنها مع اقتراب الصوت سطحت نفسها على التراب وكأن اللحظة قد تمر بها. وعندما فات

الأوان، رفست في محاولة للهرب، والتهمت. خبت الضجة، تقوس دَرَج من التراب والعلف فوق

الحقول مثله مثل الكتابة. وبعدها غاب المشهد، ورأت كيرستين صورتها المنعكسة طافية في السديم الرمادي للفراغ.

قالت، "لانس."

"ماذا؟"

"سوف نرحل."

"هه، ماذا؟"

جمعت كيرستين ثياب العجوز في كيس من أكياس المرائب وجعلت لانس يحملها إلى السيارة. رتبت السرير ونفشت الوسائد الرفيعة. كان الهدوء يخيم على المنزل.

جلست أمام التسريحة الصغيرة المدهونة، أخذت من الكوب قلم شمع أزرق وكتبت رسالة شكر. كتبت للمرأة العجوز أن لحظة واحدة من الحب هي كل الحب في الدنيا، وأن لحظة واحدة هي كل اللحظات؛ كتبت أن فطيرة اليقطين راقتها حقاً، وقد قصدت كلامها حين قالت إنها أذ ما تناولته على الإطلاق. أضافت أنها لم تتوقع قط أن تتذوق أحلى منها؛ شكرتها على حسن الضيافة وإصلاح السيارة؛ وعندئذ كتبت كلمات أغنية كانت المرأة التي دعته بأمي تغنيها:

أين تذهبين يا صغيرتي، صغيرتي؟

أين تذهبين يا طفلي، طفلي؟

استديري وستصبحين اثنتين، استديري وستصبحين أربعة.

استديري وستصبحين فتاة صغيرة تخرج من البوابة.

غاب لانس طويلاً. تأملت كيرستين الرسالة، فكرت في تقطيعها كلما قرأتها. كانت تجلس في الانتظار حين شعرت بدفء مباغت فمدت يدها أسفل حد لباسها المطاطي. عندما رجّع لانس أخيراً، كان مغطى بأوراق أشجار جافة وخيوط من شرابة ستارة كمن يشغل في الحقول. خرّجا ودفعاً السيارة في ممر مكسو بالحصى خارجين إلى الطريق. اشتغل المحرك، بهدوء في منتهى الجمال.

أمرته كيرستين، "انتظر هنا."

عادت إلى الفناء. كان الجو بارداً، وقد أطلق هواء الليل الرطب رائحة نفاذة من الروث والتربة والقش، رائحة كانت كيرستين متأكدة أنها لا تنتمي إلا لأيواء، وخلال ساعات مُعينة فقط. جذبت التي شيرت فوق رأسها. كانت تمد يدها إلى مشبك غسيل ثبّت صدرية المرأة عندما حملها شيء على رفع عينيها. وقفت العجوز خلف نافذة الطابق العلوي، تضغط بيد مسطحة على الزجاج. أخذت كيرستين الصدرية من الحبل وزلّقت الحمالتين على كتفيها. ثبّتت المشبك ثم مالت إلى الأمام واضعة ثدييها بحرص في الصدرية البيضاء الصغيرة. تبادلّت المرأتان نظرة تراءت وكأنها ستطول إلى الأبد. ارتدت كيرستين بعدها التي شيرت وجرّت راجعة إلى لانس.

قادا أسفل نور القمر في طرق كالمتاهة تشق الحقول.

قال لانس، "اللجنة، لا شك أن الرب وفرّ الذرة لهذا المكان." ما تمالك أن قلّد الرجل العجوز. "سأطير من السعادة لمّا أغادر هذه الإيواي. إيواي! قدّرتك يا يسوع. آسف، ولكن هؤلاء الناس سخفاء. وذلك العجوز، بثرثرته في الكلام عن خنازير كاسترو الوسخة في حوض الاستحمام. ماذا قال، طبّخوا خنزيراً في غرفة الفندق؟ يا للخراء." كان لانس يفرض سيطرته، وبعقل مركز يصوغ الروابط. شمله الرضا عن نفسه، شمله إحساس بالثقة. "اللجنة إنني أكره لحم الخنزير! رائحته كالبول!" أنزل زجاج النافذة ليصيح، "مع السلامة يا إيواي يا بنت الوسخة!" نفض عن كُمه شعيرات ذرة وعن شعره قطعاً من أوراق الشجر.

"هذا من أجلك." مد يده في جيبه وناولها سلسلة طويلة ثقيلة.

أنبأها، "يبدو ذهباً مطعماً بالزمرد والياقوت."

"إنها حلية مقلّدة يا لانس."

"سنثمنها، وسترين. إنها حقيقية." تتمر للحقيقة كارهاً عوائقها. "لن يلاحظ غيابها يا كيرستين. إنهما عجوزان يا حبيبتي. سوف يموتان، ولا وريث لهما، فلا تقلقي." ابتسم ابتسامة واسعة ثم أبلغها، "لقد فزتُ أنا الآخر بشيء من الصفقة." انتظر. ما بدر من كيرستين إلا أن حدقت إلى السلسلة المبهرجة الرخيصة، تسكبها كما المياه من يد إلى أخرى.

قال لانس، "انظري وراءك."

وحين التفتت، لم تر من النافذة الخلفية إلا أثراً من الغبار ينقلب أحمر اللون في نور المصابيح

الخلفية.

نَبَّهها لانس، "تحت البطانية".

مدت كيرستين يدها خلفها وسحبت البطانية. كان المقعد الخلفي يعج بكيزان الذرة. لقد حوّل لانس المقعد الخلفي بأكمله إلى معلف.

نبس، "ذرة أيوا، ينال مني الجوع لمجرد التفكير فيها."

Copyright © 2006-2011 Albawtaka Review. All Rights Reserved.

© جميع حقوق الطبع محفوظة لمجلة البوتقة بموجب اتفاق تم التوصل إليه مع المؤلفين. لا يُسمح بإعادة إصدار أي من القصص سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينها في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها بأي شكل من الأشكال. يجوز استخدامها لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقدية شريطة الرجوع إلى المجلة والمؤلف الأصلي.